العبادة
حقيقتها وأركانها

محمد مصطفى الشيخ

شبكة الألوكة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العبادة حقيقتها وأركانها (١)

محمد مصطفى الشيخ

msheikh1435@gmail.com

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد،

فإن التوحيد هو الغاية من خلق العالمين وأصل دين المرسلين. ومن المعلوم أن توحيد الأنبياء والمرسلين هو إفراد الله وحده بالعبادة[١]، وأن **توحيد الألوهية هو توحيد العبادة**؛ فباعتبار إضافته إلى الله يسمى توحيد الألوهية، وباعتبار إضافته إلى الخلق يسمى توحيد العبادة؛ فيتعين على المسلم إذًا أن يتبين: ما هي حقيقة العبادة؟ وما دلالاتها المختلفة في كلام الله ورسوله؟ بعبارة أخرى: **أيّ عبادة إذًا تلك التي خُلقنا لأجلها، والتي هي فيصل التفرقة بين التوحيد والشرك، والتي هي معقد النجاة في الدنيا والآخرة؟ وما هو حدُّها؟ وهل لها أركان تقوم عليها وتنتقض بفواتها؟ هذا ما سنجيب عنه – بعون الله تعالى – في هذه المقالات.**

العبادة لغة وشرعا

من المعلوم أن مادة العبادة غير مادة المعرفة، لغة وشرعا. فمادتها تدور على الخضوع والذل والانقياد والطاعة، فهي من باب **العمل**. فكما أن توحيد أهل السنة يفارق توحيد أهل الكلام في كونه ليس مجرد اعتقاد وإفراد، فكذلك العبادة هي توجه وقصد وعمل، موافقة لشعار أهل السنة أن الإيمان قول وعمل.

أما العبادة لغة: فقد قال في الصحاح: (وتقول: عَبْدٌ بيِّن العُبُودَة والعُبُودِيَّة. وأصل العُبُودية الخضوع والذل. والتَّعْبِيدُ: التذليل، يقال: طريق مُعَبَّدٌ... والعِبَادَةُ: الطاعة، والتَّعَبُّدُ: التنسُّك) [مختار الصحاح: مادة (ع ب د)، ص٤٦٧].

وقال في القاموس: (والعَبْدِيَّةُ والعُبودِيَّةُ والعُبودَةُ والعِبادَةُ: الطَّاعَةُ... والمُعَبَّدُ كمُعَظَّمٍ: المُذَلَّلُ من الطَّرِيقِ... وتَعَبَّدَ: تَنَسَّكَ) [القاموس المحيط: باب الدال، فصل العين، ١/ ٣٢٢-٣٢٣].

---

(١) كما بينا سابقا في مقالة (كلمة التوحيد في الكتاب والسنة).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أما العبادة شرعا: فإن مدلول العبادة في نصوص الشرع هو معنى مخصوص لمدلولها اللغوي، كما أن الصلاة دعاء مخصوص والصوم إمساك مخصوص والحج قصد مخصوص.. إلخ. فهي تجمع معاني الخضوع والذل والمحبة والتعظيم على نحو مخصوص؛ بحيث تُصرف للخالق على وفق ما شرع.

وشأنها شأن الإيمان والتقوى والدين وسائر هذه الألفاظ الشريفة، **لها أصل وكمال**. فالأصل الذي يحقق صفة الإسلام، والكمال الذي يحقق صفة الإيمان.

العبادة أصل وكمال

وأصل العبادة يلتقي مع أصل الإيمان وأصل الدين والإسلام في أن هذه جميعا أوصاف للدائرة التي تشمل أهل القبلة ممن دخل في الملة ووُعد بالنجاة من الخلود في النار يوم القيامة. فهذه الأسماء جميعا متحدة من هذه الحيثية، من حيث إنها تدل على مسمى واحد. إلا أن كلا منها يدل عليه من جهة أو "زاوية" معينة، كما أن المهند والصارم يدلان على مدلول واحد لكن بأوصاف مختلفة.

وحين تأتي العبادة مقرونة بأفرادها فإنها تدل على أصلها كما هو معلوم من قواعد اقتران الألفاظ؛ يقول **ابن تيمية**: (**والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الأسماء مقصودها واحد، ولها أصلان**: أحدهما: ألا يُعبد إلا الله. والثاني: أن يُعبد بما أَمر وشَرع، لا بغير ذلك من البدع) [الفتاوى: ١٠/ ١٧٢-١٧٣].

أما **كمال مدلول العبادة** وسائر هذه الأسماء فهو الدين كله؛ كما قال **ابن تيمية** رحمه الله في تعريفها: (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة) [الفتاوى: ١٠/ ١٤٩].

إذًا يتنوع مدلول العبادة بين دلالتها على التوحيد الذي هو أصل الدين والإسلام العام، وبين دلالتها على الدين كله المبين في حديث جبريل. ويظهر ذلك بحسب السياق. وسنفصل قليلا في هذا المعنى.

أولا: دلالة العبادة على أصل الدين

كثيرا ما تأتي العبادة مقرونة بالفروع سابقة عليها، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦]، وكما في عامة الأحاديث التي ذكرناها في بيان معنى لا إله إلا الله من السنة،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مثل حديث جبريل في رواية أبي هريرة: «الإسلام أن تعبد الله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة المكتوبة...» [متفق عليه]. كما تأتي العبادة بهذه الدلالة في معرض بيان الدين المشترك بين الأنبياء والكلمة السواء التي التقت عليها. وكذا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١]. ومثله يقال في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

ففي جميع ذلك فإنها تدل على حق الله على العباد في كل فعل من أفعالهم، وهذا هو الإسلام العام الذي أرسلت به الرسل وأنزلت به الكتب، فهو معنى العبادة المجرد الراجع إلى أصل الدين. وهو معنى الاعتبار الأول لإطلاقها، الذي هو جنس التعبد.

وفي هذا يقول **الشاطبي**: (كلُّ حكم شرعي ليس بخالٍ عن حق الله تعالى وهو **جهةُ التعبد**، فإنّ حقَّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، **وعبادتُه امتثالُ أوامره واجتناب نواهيه بإطلاق**) [الموافقات: ك/ المقاصد، القسم الأول، النوع الرابع، المسألة التاسعة عشرة، ٢/ ٥٣٨]. وهذا التعريف ظاهرٌ في بيان أصل العبادة وأصل الدين الذي هو الاستسلام لله مطلقا، وهي طاعة القبول والانقياد[٢] التي هي حق لله في كل فعل عادي أو عبادي، وإن وقعتْ بعد ذلك المخالفة في آحاد المأمورات والمنهيات بما لا ينقض هذا الأصل.

ويقول **عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ**[٣] عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]: (وعبادته هي طاعته بفعل المأمور وترك المحظور، وذلك هو حقيقة دين الإسلام؛ لأن معنى الإسلام: الاستسلام لله تعالى، المتضمِّن غاية الانقياد والذل والخضوع) [فتح المجيد: كتاب التوحيد، ص٢٢].

ويقول **القرطبي** في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١]: (قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾ أمرٌ بالعبادة له. والعبادة هنا عبارة عن **توحيده والتزام شرائع دينه**. وأصل العبادة الخضوع والتذلل، يقال: طريق معبدة إذا كانت موطوءة بالأقدام) [القرطبي: (البقرة: ٢١)، ١/ ٢٢٥].

وقال بعد أن ساق أقوال المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]: (والمعنى متقارب، تقول: عبدٌ بيِّن العُبودة والعبودية، وأصل العبودية الخضوع والذل. والتعبيد التذليل يقال: طريق معبد... والعبادة: الطاعة، والتعبد التنسك. فمعنى ﴿لِيَعۡبُدُونِ﴾ ليذلوا ويخضعوا ويعبدوا) [القرطبي:

---

(٢) كما فصلنا في مقالة (معنى القبول والانقياد في شروط لا إله إلا الله – ١).

(٣) نقلا عن **ابن كثير** إلا أنه غير موجود في تفسيره.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

(الذاريات:٥٦)، ١٧/ ٥٦].

وقد بين الله سبحانه شرك المشركين في سورة "الأنعام" ثم قال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ومثله في "النحل" فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا **عَبَدۡنَا** مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ **ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ** وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٥-٣٦]. فجَعَلَ شركَهم متمثلا في أمرين: الأول عبادة آلهة من دون الله – بمعنى التنسك لها من دعاء وطواف وذبح ونحوها – والثاني التحريم والتحليل من دون الله. ثم بين أن ذلك مخالف لما دعتهم الرسل إليه من عبادة الله وحده دون سواه من الطواغيت وغيرها.

فدلت لفظة العبادة الأولى ﴿مَا عَبَدۡنَا﴾ على النسك خاصة- كالصلاة والدعاء – دون سائر أصناف التعبدات من العادات والمعاملات؛ من جهة أن العبادات – بهذا المعنى وهو الشائع في كلام الفقهاء – حق خالص لله يُصرف له وحده وفق ما شرع، أنشأها الشارع على غير معهود الناس وأَمَرَ بها وليس للعباد فيها إلا التلقي والتنفيذ، وتفتقر في صحتها إلى النية التي لا تكون إلا بعد العلم بأن هذا الفعل عبادة وقربة أَمَرَ الله بها، وهي غير معقولة المعنى على الخصوص، لذا التفريع فيها قليل لأن مبناها على التوقيف.

ثم جاءت العبادة في الموضع الثاني ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ – مقرونة بالنفي ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ كما في سائر القرآن – لتشمل الأمرين اللذين وقع فيهما الشرك، معبرة عن أصل الدين الذي هو حق الله على العباد في كل فعل من أفعالهم: إخلاص العبادة له وحده (النسك)، وتلقي التحليل والتحريم في سائر الأمور (العادات والمعاملات) منه وحده. وهذا – كما تقدم – هو الإسلام العام، وهو التوحيد (العملي) الذي بعث به الرسل.

ثانيا: دلالة العبادة على الدين كله

وقد يراد بالعبادة الدين كله، كما ذهب **ابن تيمية** في رسالة "العبودية" حيث بَيّنَ: إذا كان جميع ما يحبه الله داخلا في اسم العبادة؛ فلِمَ عُطف على العبادة غيرُها كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ وقول نوح: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٣]؟

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فذكر أن (هذا الباب:

- يكون تارة مع كون أحدهما بعضَ الآخر فيُعطف عليه تخصيصا له بالذكر لكونه مطلوبا بالمعنى العام والمعنى الخاص.

- وتارة تكونُ دلالةُ الاسم تتنوع بحال الانفراد والاقتران؛ فإذا أُفرد عَمَّ، وإذا قُرن بغيره خَصَّ، كاسم الفقير والمسكين، لما أفرد أحدهما في مثل قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] وقوله: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ [المائدة: ٨٩] دخل فيه الآخر، ولما قرن بينهما في قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] صارا نوعين.

وقد قيل: إن الخاص المعطوف على العام لا يدخل في العام حال الاقتران بل يكون من هذا الباب، والتحقيق أن هذا ليس لازما؛ قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧].

وذِكرُ الخاص مع العام يكون لأسباب متنوعة:

- تارة لكونه له خاصية ليست لسائر أفراد العام، كما في نوح وإبراهيم وموسى وعيسى.

- وتارة لكون العام فيه إطلاق قد لا يُفهم من العموم، كما في قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٢-٤]؛ فقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يتناول الغيب الذي يجب الإيمان به، لكن فيه إجمال فليس فيه دلالة على أن من الغيب ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾. وقد يكون المقصود أنهم يؤمنون بالمخبَر به وهو الغيب، وبالإخبار بالغيب وهو ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾) [الفتاوى: ١٠/ ١٧٤-١٧٥].

ثم بيّن رحمه الله أن من هذا الباب قوله لموسى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، وإقامة الصلاة لذكره من أجَلّ عبادته، وكذلك قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، فإن التوكل والاستعانة هي من عبادة الله، لكن خُصّت بالذكر ليقصدها المتعبد بخصوصيتها، فإنها العون على سائر أنواع العبادة، إذ هو سبحانه لا يعبد إلا بمعونته.

ومما سبق يتبين أن العبادة هي خضوع وانقياد لله، وأن لها حقيقة هي أصل العبادة وجوهرها، ولها أفراد ومتعلقات تنبع من هذا الأصل وتمثل معه العبادة بمعناها العام الشامل.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فإذا كانت الصلاة تشمل أشياء كثيرة إلا أن لها أركانا لا تصح بدونها كالإحرام والركوع والسجود، وإذا كان الحج عرفة، فهل ثمة أركان للعبادة هي الأعمدة التي يقوم عليها بناؤها ويزول بزوالها؟ هذا ما سنبينه في المقالة التالية إن شاء الله تعالى.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العبادة حقيقتها وأركانها (٢)

محمد مصطفى الشيخ

msheikh1435@gmail.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد،

فقد تكلمنا في المقالة السابقة على حقيقة العبادة وأصلها، ونتابع اليوم حديثنا على أركانها.

ما المقصود بأركان العبادة؟

إن كلامنا هنا يُعنى بدخول هذه الأركان في معنى العبادة وأن العبادة لا تقوم بغيرها وتنتقض بانتقاض أحدها، سواء أسميناها أركانا أو مقتضيات أو عناصر فكلها اصطلاحات، وقد استعملنا الركن لدلالته الصريحة على هذا المعنى. يقول **الجرجاني**: (ركنُ الشيء لُغةً جانبُه القوي فيكونُ عينَه. وفي الاصطلاح ما يقوم به ذلك الشيء، من التقوم إذ قوام الشيء بركنه، لا من القيام... وقيل: ركن الشيء ما يتم به وهو داخل فيه بخلاف شرطه وهو خارج عنه) [التعريفات للجرجاني: باب الراء، ٩١١، ص١١٥]. وكذا نقل **ابن الصلاح** عن **الغزالي** تعريفه للركن بأنه (ما تركبت حقيقة الشيء منه ومن غيره) ثم أورد إشكالا وهو استعماله له أحيانا فيما ليس جزءا من الحقيقة مثلما عَدَّ العاقد والمعقود عليه من أركان عقد البيع وليسا داخلين في حقيقة العقد قطعا. وأجاب عن ذلك بتعريف أدق للركن فقال إن ركنَ الشيء **(عبارة عما لا بد لذلك الشيء منه في وجود صورته عقلا؛ إما لكونه داخلا في حقيقته، أو لكونه لازما له وبه اختصاص)**. بخلاف الشرط (مثل كون المبيع معلوما ومنتفعا به) فإنه لا بد منه في وجود صحة العقد شرعا، لا في وجود صورته حسا، لأن صورة العقد موجودة بدون كل ذلك، أما العاقد والمعقود عليه وصيغة العقد فإنها لا يتصور العقد إلا بها. انظر [أدب المفتي والمستفتي: ١/ ٢٦٩].

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أركان العبادة

لقد تناول كثير من أهل العلم العبادة وأركانها في مصنفاتهم(٤). وباستقراء ما كتب في تقرير معنى العبادة وأركانها، يتحصل لنا قواعد هامة في هذا الباب.

- فأول ذلك أن العبادة مدارها على أصلين: الأول: الذل والخضوع والانقياد، والثاني: المحبة.
- وعبادة الله وحده هي أصل دين الإسلام، بل هي معنى الإسلام، وهي **التوحيد** الذي بُعثت به الرسل. وعليه فإن العبادة هي **إفراد الله** بما هو حق خالص له سبحانه لا يشركه فيه غيره؛ والشرك هو صرف هذا الحق لغير الله.
- وحق الله الذي ينبغي صرفه له وحده يشمل **أمورا كثيرة** عبر عنها العلماء بألفاظ متقاربة. والواجب استقراء النصوص الشرعية والجمع بين المتماثلات لتحديد أركان العبادة التي تلزم لصحة إسلام العبد ونجاته من الشرك. ولا ريب أن أركان العبادة تدور حول أصليها الحب والخضوع.
- فسبيلنا إذًا إلى معرفة أفراد العبادة وضدها من الشرك أن يُنص على ذلك في نصوص الشرع، أو يوصف فعلٌ ما بأنه شرك فيكون ضده عبادة، أو برجوعه إلى حد العبادة الذي بيَنَتْهُ النصوص كما قدمنا. ولهذا نظائر كثيرة عند أهل العلم، مثلما يتكلم الأصوليون عن الواجب وسبل تعيينه بالنص

---

(٤) انظر للأهمية:

- قاعدة في العبودية، لابن تيمية، الفتاوى: ١٠/ ١٤٩-٢٣٦. حيث سئل عن قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾: ما العبادة وفروعها؟ وهل مجموع الدين داخل فيها أم لا؟ وما حقيقة العبودية؟ فأجاب بهذه القاعدة.
- الفتاوى الكبرى، لابن تيمية، ٦/ ٥٦٤-٥٦٧: (وأما التوحيد الذي ذكره الله في كتابه، وأنزل به كتبه، وبعث به رسله، واتفق عليه المسلمون من كل ملة، فهو كما قال الأئمة: شهادة أن لا إله إلا الله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له...).
- الرسالة التدمرية، لابن تيمية، ٣/ ٨٩-١٢٨: (وأما الأصل الثاني وهو التوحيد في العبادات...).
- مدارج السالكين، لابن القيم، منزلة الرضا، ٢/ ١٨٨-١٩٢؛ منزلة التوبة، فصل في أجناس ما يتاب منه، ١/ ٣٦٩-٣٧٦.
- الموافقات، للشاطبي، المقدمة السابعة، ١/ ٧٣؛ ك/ الأدلة الشرعية، الطرف الثاني، المسألة السابعة، ٤/ ٢٠٤-٢٠٦؛ ك/ المقاصد، القسم الأول، النوع الرابع، المسألة التاسعة عشرة، ٢/ ٥٣٨-٥٤٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عليه أو على عقوبة المخالف.. إلخ. وقد بين أهل العلم (أن كثيرا من المسائل التي ذكرها العلماء في مسائل الكفر والردة وانعقد عليها الإجماع لم يرد فيها نصوص صريحة بتسميتها كفرا، وإنما **يستنبطها العلماء من عموم النصوص**؛ كما إذا ذَبحَ المسلم نسكا متقربا به إلى غير الله فإنّ هذا كُفرٌ بالإجماع كما نص على ذلك **النووي** وغيره، وكذلك لو سجد لغير الله) [الدرر السنية: ك/ مختصر الردود، ١١/ ٢١].

- ومن مجموع النصوص وأقوال العلماء تقرر أن أركان العبادة تشمل ما يلي:

أولا: إفراد الله بالعبادات (النسك)

وهذا أظهر من أن يستدل عليه؛ إذ التعبد لله بما افترضه علينا هو أخص أنواع العبادة، بل هو أحد إطلاقات لفظ العبادة المعروف عند الفقهاء.

وهذا الركن مبناه على التذلل لله مع محبته. فهو مبني على أصلي العبادة كما هو ظاهر.

ومعلوم أن شرك المشركين كان أظهر ما يكون في دعاء غير الله والتقرب لمعبوداتهم بما اخترعوه من شعائر.

ثانيا: إفراد الله بالحكم (الطاعة)

قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، فهذا دليل صريح على أنه من التوحيد ألا يُبتغى حَكَما سواه. وهذا الاستدلال من جنس استدلال العلماء على دخول الذبح والنذر.. إلخ في التوحيد وذلك من خلال النصوص التي تبين أنها حق خالص لله وتُبين وجوبَ صرفِها لله وحده، وكذلك بالقياس على هذه النصوص.

وهذا الركن راجع إلى أصل الانقياد والخضوع والذل الذي هو أخص معاني العبادة، بل قد فُسرت العبادة بالطاعة كما رأينا في دلالاتها اللغوية كما في "القاموس".

هذا وإنّ إفراد الله بالطاعة لا يكون عبادة ولا يصح به التوحيد والإيمان إلا إذا كان مقرونا بمحبة الله سبحانه والرضا بحُكمه؛ قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، بل قد جَعل سبحانه اتباعَ حُكم الله الدليلَ على محبته

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢]. فلا يتصور طاعة وانقياد للحُكم مع الكره والتسخط إلا إذا أُجبِر الرجل على الطاعة كما في حال غلبة الإسلام وأهله، وحينئذ يكون مسلما في الظاهر مع كفره في الباطن (المنافق).

وقد جاءت العبادة في الكتاب بمعنى الطاعة والخضوع في غير موضع؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]. قال **الطبري**: (يقول تعالى ذكره: ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ فقال فرعون وملؤه ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ فنتبعهما ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ من بني إسرائيل ﴿لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ يعنون أنهم لهم مطيعون متذللون، يأتمرون لأمرهم ويدينون لهم. والعرب تسمي كل من دان لمِلك عابدا له، ومِن ذلك قيل لأهل الحِيرة: العُبّاد، لأنهم كانوا أهل طاعة لملوك العجم. وبنحو الذي قُلنا في ذلك قال أهل التأويل) [الطبري: (المؤمنون:٤٧)، ١٨/ ٢٥].

وقال تعالى في تقرير صريح: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]. إن المشركين كما أشركوا الأموات والجمادات فقد أشركوا مع الله أيضا الصالحين والكهان والأحبار والرجال إذ أطاعوهم بغير برهان، كما في حديث عدي بن حاتم [الترمذي].

وقد أفضنا القول فيما سبق على طاعة القبول والنقياد وكونها داخلة في أصل الدين والتوحيد والإيمان(٥).

يقول **ابن القيم**: (إذا عُرف هذا، فالرضا بالقضاء الديني الشرعي واجبٌ وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان. فيجب على العبد أن يكون راضيا به بلا حرج ولا منازعة ولا معارضة ولا اعتراض. قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] فأقسم أنهم لا يؤمنون حتى يُحَكِّموا رسوله، وحتى يرتفع الحرج مِن نفوسهم مِن حُكمه، وحتى يُسَلّموا لحكمه تسليما. وهذا حقيقة الرضا بحكمه؛ فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان) [مدارج السالكين: منزلة الرضا، الدرجة الثانية، ٢/ ٢٠١]. وظاهرٌ أن كُلا من انتفاء الحرج والتسليم المذكورين ليس معناهما راجعا إلى ما يخرم أصل الانقياد بل يدلان على مرتبتين

---

(٥) تراجع مقالة (معنى القبول والانقياد في شروط لا إله إلا الله – ١).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فوق مرتبة أصل الدين – هذا على كلام **ابن القيم**. فإنه من المعلوم أنه لا بد من أصل الرضا وأصل المحبة وأصل التسليم إذ الإسلام لا يَسَعُ مَن لم يرضَ ولم يُسَلِّم، لكن الشيخ يتكلم على مقامات عالية.

ويقول **ابن تيمية**: (الدليل الرابع على ذلك أيضا: قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. أقْسَمَ سبحانه بنفسهِ أنهم لا يؤمنون حتى يحكِّموه في الخصومات التي بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقا من حكمه، بل يُسلِّموا لحكمه ظاهرا وباطنا.

وقال قبل ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦٠-٦١] فبيّن سبحانه أن مَن دُعي إلى التحاكم إلى كتاب الله وإلى رسوله فصدَّ عن رسوله كان منافقا.

وقال سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٤٧-٥١]، فبيَّن سبحانه أن من تولى عن طاعة الرسول وأعرض عن حكمه فهو من المنافقين وليس بمؤمن، وأن المؤمن هو الذي يقول: سمعنا وأطعنا.

فإذا كان النفاقُ يَثبُتُ ويَزولُ الإيمانُ بمجرد الإعراض عن حكم الرسول وإرادة التحاكم إلى غيره، مع أن هذا تركٌ محض، وقد يكون سببه قوة الشهوة، فكيف بالتنقص والسب ونحوه؟ – ثم استدل الشيخ بأثر أمير المؤمنين **عمر بن الخطاب** المروي في سبب نزول هذه الآية وفيه قصة ضرب عنق الذي لم يرض بتحكيم الرسول ولا أبي بكر) [الصارم: المسألة الأولى، فصل الأدلة من القرآن الدالة على كفر الشاتم وقتله، الدليل الرابع، ٢/ ٨٠-٨٥].

فهذه نبذة يسيرة في بيان هذين الركنين: توحيد العبادة والتأله وتوحيد الطاعة والانقياد. وإن بيان القرآن لشرك المشركين الذين أشركوا في عبادته جليّ بخصوص هذين الركنين كما تقدم. وبيان شمول العبادة لهذين الركنين واضح ومنتشر في كلام أهل العلم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وليس هذا المقام موضع تفصيل القول في بيان الركنين المذكورين وما ينقضهما. لكنه موضع تقرير أصول التوحيد والإيمان التي يسهل بعدها تناول هذه الأمور بغير عناء، فإن أساس المسألة إذا تبين لم تختلف بين يديك الأقوال، بل لم يزدك النظر في مصنفات المتقدمين أو المتأخرين إلا رسوخا وإيمانا(٦).

كما أن هذا ليس مقام بيان الأحكام المترتبة على انتقاض أركان التوحيد والعبادة، فلبسط هذه الأحكام والقواعد الضابطة لها باب آخر، لعلنا نطرقه إن شاء الله تعالى عقب الفراغ من بيان حقائق التوحيد والإيمان اللازمة للنجاة عند الله تعالى؛ فعن جابر قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ فقال: يا رسول الله، ما الموجبتان؟ فقال: «من مات لا يشركُ بالله شيئا دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئا دخل النار» [مسلم].

ثم تبقى مسألة وهي الولاية ودخولها في العبادة، نأتي عليها في المقالة التالية إن شاء الله.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل عبادته، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(٦) انظر في النسك مثلا: (تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد)؛ وفي الحكم: رسالة (تحكيم القوانين)، لمحمد بن إبراهيم آل الشيخ؛ و(الحكم بغير ما أنزل الله أحواله وأحكامه)، د. عبد الرحمن بن صالح المحمود.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العبادة حقيقتها وأركانها (٣)

محمد مصطفى الشيخ

msheikh1435@gmail.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد،

فقد تناولت المقالتين السابقتين معنى العبادة وإطلاقاتها، ثم بين أركان العبادة، حيث ذكرنا ركنين أساسين وهما إفراد الله بالنسك، وإفراد الله بالطاعة. **وقد يُضم إلى هذين الركنين ركن ثالث وهو الولاية، ونبين ذلك في السطور التالية.**

هل الولاية والموالاة من المصطلحات الخفية؟

من المتعين أولا بيان أن لفظ الموالاة في عُرف من شهدوا التنزيل كان أظهر من أن يُعرّف أو يحدّ. إذ كان يستخدم بكثرة في الأمور المتعلقة بالعبيد والأنساب والأحلاف والنصرة في الخصومات والحروب وغير ذلك. وجميع هذه الاستعمالات راجعة إلى معنى واحد ظاهر وهو **عقد مناصرة بين المتواليين** – سواء كان سببُه النسبَ أو العتق أو الحِلف أو غيرَها – ولا مدخل للأمور الباطنة ههنا. حتى لقد جاء في الحديث النهي عن بيع الولاء وعن هبته [متفق عليه][٧]، و«من والى قوما بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبَل منه صَرْف ولا عَدْل» [متفق عليه][٨]. لذلك حين تتنزل الآيات بالأمر بموالاة المؤمنين والنهي عن تولي الكفار والحديث عن أولياء هؤلاء وأولئك فإن المتبادر إلى الذهن مباشرة هذا المدلول الذي بيناه، تماما مثلما نتكلم اليوم عن مصطلح "الجنسية" فيفهم الذهن على الفور نسبة مادية موثقة إلى بلد معين يترتب

(٧) الولاء لُحمة وانتماء كالنسب تَثبت بين المعتَق ومعتِقه كما يثبت نسب الولد لوالده، فيقال مثلا سالم – مولى أبي حذيفة – القرشي أو القرشي بالولاء أو القرشي مولاهم، فلا تزول بالإزالة؛ وقد كانت العرب تبيع الولاء وتهبه. والولاء يقتضي ـ ميراث المعتِق من معتَقه.

(٨) فُسر الولاء هنا بولاء العتق وحُمِل القيد بالإذن على الغالب. وفُسر بأنه شامل للمعنى الأعم من الموالاة وهي مطلق النصرة والإعانة والإرث.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عليها آثارها ولا مدخل فيها للأمور القلبية الباطنة.

والنصرة والتأييد والموالاة كل ذلك قد يكون بكلمة يتلفظ بها المرء فلا تحمل منه إلا على هذا الوجه، ولا نقول إن هذا في اصطلاح الشارع فحسب بل نقول إن النصرة تكون بكلمة في مقتضى العقل والفطرة، ومقتضى الشرائع السماوية، ومقتضى القوانين الوضعية[٩].

ونقول: ليست دلالة لفظ الولاية على النصرة من قبيل الألفاظ المشتركة التي تطلق على مسميات مختلفة لا تشترك في الحد والحقيقة البتة، كما نقول إن العين تطلق تارة على العضو الباصر، وتارة على الموضع الذي يتفجر منه الماء، وتارة على الشمس؛ فإن من يظن ذلك يقول: الوَلاية تأتي في القرآن بمعان مختلفة فتأتي تارة بمعنى النصرة، وتارة بمعنى النسب، وتارة بمعنى الرق.. إلخ.

بل لعل لفظ الولاية من قبيل الألفاظ المتواطئة التي تطلق على أشياء متغايرة بالعدد متفقة بالمعنى الذي وضع الاسم عليها، كاسم الجسم يطلق على السماء والأرض والإنسان جميعا، لاشتراك هذه الأعيان في معنى الجسمية التي وضع الاسم بإزائها. فكذلك **الولاء علاقة نصرة** كما بينا، تتنوع بأسبابها وصورها[١٠].

وهذا فقهٌ في القرآن عظيم، أن نفهمَ الألفاظ كما نَزلت وكما فهمها الأولون قدر جهدنا، ولا نستكثر من التقسيمات والأقوال بغير طائل[١١].

---

(٩) في الجرائم الجنائية لا يجرم القانون الجاني المباشر للفعل فقط بل والمعاون والمحرض أيضا.

(١٠) انظر "المستصفى"، مقدمة الكتاب، الدعامة الثانية (البرهان)، الفن الأول، الفصل الأول (في دلالة الألفاظ على المعاني).

(١١) ومن الأمثلة على ذلك قول بعض الناس في الإيمان إنه قد يأتي بمعنى الصلاة لأن السلف فسروا الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] بأنه صلاتهم إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة. والصحيح – وهو مقصود كلام السلف – أن الإيمان في الآية هو الإيمان الذي خوطبوا به قبل ذلك في القرآن المكي كله، تصديق الخبر والانقياد للأمر. والآية تبين أن صلاتهم الأولى هذه سماها الشارع "إيمانا" ليعلمنا أنهم إذْ فعلوها في ذلك الوقت كان ذلك هو إيمانهم في هذه الحال الذي لن يضيعه الله، وليس المراد العكس بأن نفسر الإيمان بأنه هنا الصلاة، بل الصلاة هنا هي إيمان. يقول **ابن تيمية**: (إن الله سمى الصلاة إيمانا بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ يعني صلاتكم إلى بيت المقدس لأن الصلاة تُصَدِّقُ عملَه وقولَه وتحصل طمأنينة القلب واستقراره إلى الحق) [شرح العمدة: فصل ويقتل لكفره، ٤/ ٨٧]. والإيمان معلوم والصلاة إحدى صوره، وكذا الولاء معروف ومن صوره الرق والحِلف وغير ذلك.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إفراد الله بالولاية راجع إلى حد التوحيد والعبادة

وعلى ذلك فنقول: إفراد الله بالولاية أو تولي الله وحده وموالاة حزبه من دون المشركين ركن في التوحيد. وهو راجع إلى **أصل المحبة** الذي لا يكون الانقياد عبادة شرعية إلا بانضمامه إليه. والموالاة في الله هي أيضا مقتضى الخضوع له وحده **وأصل الانقياد** لشرعه.

ومعلوم أيضا أن المشركين بعضهم أولياء بعض:

- وقد سمى الله تعالى معبوداتهم من دونه أولياء.
- وسمى من يتحاكمون إليه من دونه أولياء.
- وسمى من يستنصرون به من دونه أولياء.

قال تعالى في **العبادة**: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الفرقان: ١٧-١٨]، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]؛ وقال تعالى في **الطاعة والانقياد**: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]؛ وقال تعالى في **الموالاة والنصرة**: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩] وغيرها كثير. فسمى الله تعالى المعبودات والمتبوعين والأنصار كلهم أولياء.

ولهذا فُسر **الطاغوت** في كلام السلف بكل ذلك، وفُسر **بالشيطان** الجامع لذلك كله.

ابن كثير يجمع أركان العبادة الثلاثة

يقول ابن كثير تعليقا على كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تفسير الطاغوت [التفسير (البقرة:٢٥٦)، ١/ ٤٠٧]: (ومعنى قوله في الطاغوت "إنه الشيطان" قوي جدا، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من: (١) عبادة الأوثان، (٢) والتحاكم إليها، (٣) والاستنصار بها)[١٢].

فانظر أخي القارئ كيف جمع في تفسيره للطاغوت المعاني الثلاثة في قول وجيز دونما تكلف.

---

(١٢) الترقيم مدرج للتوضيح.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ونقول: إن هذا من باب الاصطلاح، ولا مشاحة في الاصطلاح ما لم يخالف أصلا ثابتا. وليس هذا من الابتداع في الدين في شيء. فإن ولاية الله والمؤمنين من أفرض الفروض، ولا يصح لعبدٍ إسلامٌ إلا بها. وقد نفى الله الإيمان في مواضع عمن اتخذ من دونه أولياء. وأخبر في مواضع أخرى أن من فعل ذلك فقد كفر، وهذا من خاصة ركن التوحيد وأُسِّه.

الولاية في كلام ابن تيمية

يقول **ابن تيمية**: (وأما قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾[١٣] [الأنفال: ٢]، فيقال: من أحوال القلب وأعماله ما يكون **من لوازم الإيمان الثابتة فيه** بحيث إذا كان الإنسان مؤمنا لزم ذلك بغير قصد منه ولا تعمد له، **وإذا لم يوجد دل على أن الإيمان الواجب لم يحصل في القلب**.

وهذا كقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ **يُوَآدُّونَ** مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] فأخبر أنك لا تجد مؤمنا يواد المحادين لله ورسوله؛ فإن نفس الإيمان ينافي موادته كما ينفي أحد الضدين الآخر. فإذا وُجد الإيمان انتفى ضدُّه وهو موالاة أعداء الله، فاذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه كان ذلك دليلا على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب[١٤].

ومثله قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا **ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ** وَلَـٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨١]، فذَكَر جملة شرطية تقتضي أنه إذا وجد الشرط [الإيمان] وجد المشروط [انتفاء ولاية الكافرين] بحرف "لو" التي تقتضي مع انتفاء الشرط انتفاء المشروط، فقال: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب. ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء ما فعل

---

(١٣) جواب عمن استشكل اشتراط وجل القلب للإيمان رغم كون الوجل عملا قلبيا خارجا عن المقدور فيما يبدو.

(١٤) كثيرا ما يذكر **ابن تيمية** الإيمان الواجب بل والتام بمعنى أصل الإيمان الذي لا يصح الإسلام بغيره، ويظهر ذلك جليا في السياق. وسياق الكلام هنا في هذا الموضع يظهر منه أنه في مقام بيان الإيمان المأمور به سواء كان ركنا أو ليس بركن. وإن كان المعلوم – من كلامه في مواضع أخر فضلا عن الأدلة الشرعية – أن موالاة أعداء الله ناقضة لأصل الإيمان، بخلاف وجل القلب عند ذكره فإن له أصلا وكمالا.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الإيمان الواجب[١٥] من الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه. ومثله قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]؛ فإنه أخبر في تلك الآيات أن متوليهم لا يكون مؤمنا، وأخبر هنا أن متوليهم هو منهم. فالقرآن يصدق بعضه بعضا؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ الآية [الزمر: ٢٣]) [الفتاوى: ٧/ ١٦-١٨].

وقد علمنا أن أصل دين الإسلام ألا يعبد إلا الله وألا يعبد إلا بما شرع؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وهو مبين في آية الكلمة السواء. ولا ريب أن شهادة أن محمدا رسول الله تقتضي بذاتها محبة النبي ﷺ وموالاته وموالاة أتباعه، وبغض جميع ما خالف ذلك.

مناط الولاية

وعلى هذا فإن موالاة المؤمنين أمر لا بد منه لصحة التوحيد واللإيمان، ونصرة الكافرين بالنفس أو المال أو الرأي نقض للإسلام والإيمان، متى تحقق مناط الولاية وهو القصد إلى نصرة الكافرين (عن علم وإرادة)، ولا مدخل بعد ذلك للبواعث على هذه النصرة فهي في الأغلب دنيوية كابتغاء عزة ومكانة عندهم أو الطمع في المال أو الخوف من أن تصيبهم دائرة. ونادرا ما تكون حبا لدين المشركين نفسه وتفضيلا له على دين الإسلام.

فرق دقيق

لكننا نرى - والله تعالى أعلم - أن الولاية تفترق عن الشعائر التعبدية وقبول شرع الله وحكمه في أنها من حيث المعنى تصرف للمؤمنين في صورة المودة والقرب والنصرة - والعكس مع الكافرين. بخلاف التنسك لله وقبول شرعه والتحاكم إليه والتزام أمره ونهيه وتحليله وتحريمه فإن هذه أمور تصرف لله من جهة المعنى لذا أُدخلت في أركان العبادة وفسرت بها العبادة. فالولاية إذًا من لوازم العبادة ومقتضياتها العملية التي لا تنفك عنها. حتى المشركون لما عبدوا آلهة من دون الله (وهذا نسك) حصلت الولاية بينهم: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: ٧٤-٧٥] وهذا جلي في

(١٥) أي أصل الإيمان.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مسألة الشفاعة (وهي من النسك)، وكذا لما قلدوا دينهم الرجال (وهو تحاكم) دخلوا في ولايتهم.

الخلاصة

وحاصل القول أن الولاية ليست شيئا مستقلا عن العبادة، بل هي مقتضى ظاهر لها، فمَن عبد الشيخ فقد اتخذه وليا من دون الله، ومن أطاع الكافرين سواء في خاصة شؤونه (كتحكيم شرائعهم) أو في حربهم على المسلمين فقد والاهم. وما عبدَ الله ووحَّدَه مَن أفرده بالنسك التعبدية ثم تَلقّى شرعه ممن سواه فوقع في ولايته، أو زعم قبوله للشرع ثم ظاهر المشركين على المسلمين فوقع في ولايتهم. وسواء جعلناها ركنا أوْ لا فحكم الولاية واحد؛ مثله مثل ما فرضه الله من توقير النبي ﷺ وتعزيره، حيث جعله **ابن تيمية** الأصل الثاني لدين الإسلام. **وهو لا ريب طاعة وانقياد من جهة، ومحبة وموالاة (نصرة) من جهة أخرى.**

وهذا كتسليمنا بأن تعظيم القرآن واجب والاستهزاء بآيات الله كفر.. إلخ ما ذكره العلماء من المكفرات في أبواب الردة. فسواء أدخلنا هذه الأمور المفروضة في مسمى العبادة وأركانها أو لم ندخلها لاعتبارات لغوية دلالية فالحقيقة واحدة.

ولذلك لَمَّا سُئل الشيخ **سليمان بن عبد الله آل الشيخ** عن مسألة سبَبت خلافا بين أهل السنة في زمانه عن الموالاة والمعاداة: هل هي من معنى لا إله إلا الله، أو من لوازمها؟ أجاب: (الجواب أن يقال: الله أعلم، لكن بحسب المسلم أنْ يعلم أنّ الله افترض عليه عداوة المشركين، وعدم موالاتهم، وأوجب عليه محبة المؤمنين وموالاتهم، **وأخبر أن ذلك من شروط الإيمان، ونَفَى الإيمان عمن يواد من حادّ الله ورسوله** ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم. وأمّا كون ذلك من معنى لا إله إلا الله أو لوازمها، فلم يكلفنا الله بالبحث عن ذلك، وإنما كلفنا بمعرفة أنّ الله فرض ذلك وأوجبه، وأوجب العمل به، فهذا هو الفرض والحتم الذي لا شك فيه. فمن عرف أنّ ذلك من معناها أو من لازمها فهو حَسَن وزيادة خير، ومن لم يعرفه فلم يُكلّف بمعرفته، لا سيما إذا كان الجدل والمنازعة فيه مما يفضي إلى شر واختلافٍ ووقوع فُرقة بين المؤمنين الذين قاموا بواجبات الإيمان وجاهدوا في الله وعادوا المشركين ووالوا المسلمين، فالسكوت عن ذلك متعين. فهذا ما ظهر لي، على أن الاختلاف قريب من جهة المعنى. والله تعالى أعلم) [الدرر السنية: ك/ الجهاد، فصل في التنبيه على حاصل ما تقدم في حكم موالاة المشركين، المسألة السادسة، ٨/ ١٦٦-١٦٧]. وهذا دأب العلماء في فقههم لمعاني آيات الله تعالى، كما قال **الشنقيطي**: "الإشراك بالله في حكمه كالإشراك بالله في عبادته"، وكما قال **محمد بن عبد الوهاب**

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

في كتاب "التوحيد": (باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أربابا من دون الله).

وبعد فإن تفصيل القول في أركان العبادة ليس هذا موضعه كما أسلفنا، وقد صُنفت فيه المصنفات بحمد الله – في النسك والحكم والولاية، فراجعها أخي القارئ لتقوى شجرة التوحيد والإيمان في قلبك، شجرة طيبة ﴿أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن الله﴾.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.